16

روسيا بعيون مصري

رحلة محمد طلعت إلى سانت بطرسبورج مابين ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧[٥٣٥]

صدر في القاهرة عام ١٩٠٧ عن «دار التقدم» ، كتاب محمد طلعت «السير والنظر» والكتاب في شرح مبسط عبارة عن : «ملاحظات المؤلف... التي تحتوي على معلومات حول الأراضي الروسية وحول أوضاع المسلمين هناك ، كما يتحدث الكاتب أيضاً عن تونس وطرابلس ومالطا ، وكيف يعامل المسلمين في فرنسا وإنجلترا وروسيا» .

وخلافا للروس الذين ارتحلوا إلى مصر مرات عديدة في العصور الوسطى والعصر الحديث ، نجد أن المصريين قلما سافروا إلى روسيا و غير معروف لدينا أية إصدارات تتناول تلك الرحلات قبل كتاب «محمد طلعت» ، ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب الصغير الذي بين أيدينا (وهو عبارة عن ٨٠ صفحة صغيرة الحجم) ، الذي يرجع له الفضل في إلقاء الضوء على إنطباعات المصريين عن روسيا والروس منذ مائة عام .

بدأت رحلة « محمد طلعت» إلى « سانت بطرسبورج» في أغسطس من عام ١٩٠٦ عندما زاره في منزله بالقاهرة «صابر عليم أفندى» التتاريّ ، خريج جامعة الأزهر الإسلامية حيث سلم « طلعت» خطاباً كان قد أرسله له صديقه التتاريّ المواطن الروسي «لطف اللّه شكرى الإسحاقي» ، والذي كان مثله مثل أخيه «أحمد أفندى الإسحاقي» خريج الأزهر .

وقد تلقى كل منهما تعليماً دينياً ممتازاً ، وقضيا وقتاً ممتعاً في بلاد الشرق ، خاصة في مصر والحجاز وفي سوريا أيضاً .

٥٣٥ عن مقالة : Россия глазами египтянина. Поездка Мухаммеда Талаата в Петербург в 1906-1907، والتي نشرت بمجلة « الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goriachkin Gennady.

تعرف « محمد طلعت «على الأخوين منذ وقت طويل ، ويشير إلى ذلك في كتابه : « لقد ربطتنا علاقة صداقة متينة وحب متبادل . وهذا ما تؤكده القصيدة التي كتبها خصيصاً لهما عام ١٩٠٢» (صـ ١٢) .

من الخطاب علم « محمد طلعت «أنهما يطلبان منه السفر إلى «سانت بطرسبورج» للعمل كمحرر في صحيفة « التلميذ» التي تصدر باللغة العربية براتب ١٠٠ روبل شهرياً في بداية الأمر رفض « طلعت» الدعوة بسبب خوفه من اضطرابات الموجة الثورية في روسيا غير أنه رضخ في آخر الأمر «والفضل في ذلك يرجع إلى إصرار البعض والضغط من قبل البعض الأخر»، وبالفعل أبحر في ١٦ أكتوبر ١٩٠٦ من الإسكندرية ، وذلك على متن أكبر وأنظف باخرة روسية ، والتي كانت تابعة لشركة التجارة والشحن « تشيخاتشوف» والتي تشق المياه بسرعة ١٩ ميلاً بحرياً في الساعة (صـ ١٣ـ ١٤) .

وصلت السفينة إلى ميناء أوديسا في ٢٥ أكتوبر وحيث إن رحالتنا كان يهتم بشكل أساسي بالمسلمين المقيمين في روسيا، فكان أول ماقام به هو معرفة أعداد المسلمين المتواجدين بالمدينة . وأوضح « محمد طلعت» أن أعدادهم لم تتجاوز ٣٠٠ شخص لحظة وصوله . وكان أغلبهم يشتغل بالتجارة ، وكان البعض منهم يمتلك فنادق ومطاعم صغيرة . كان رئيس رابطة المسلمين في أوديسا شخص يدعى «صابر أفندى». كان يبلغ من العمر واحد وخمسون عاماً ويتمتع ببنية قوية ويميل وجهه إلى الامتلاء قليلاً . وكان يفهم اللغة العربية الفصحى وكان يسعى طوال الوقت إلى التحدث معهم ولكن كان ذلك بصعوبة بالغة كما اعتبر «طلعت» أن الأنشطة التي يقوم بها في أوديسا تحمل فائدة عظيمة بالنسبة للمسلمين المقيمين داخل المدينة . « فلم يكن يشغله أي شيء آخر سوى أمور المؤمنين المتواجدين في المدينة لفترة قصيرة وتنظيم صلواتهم» (صـ٣٧) .

أشار «محمد طلعت» إلى أن ميناء أوديسا يعد أكبر موانيء الإمبراطورية الروسية المطلة على البحر الأسود . كما أشاد بجمال المدينة ومبانيها الضخمة ، مشيراً في نفس الوقت إلى شوارعها المستقيمة والواسعة . وكم كانت رائعة لدرجة أنها تخطف الأنظار، كما أبدى فرحته بالمنتزهات العامة خاصةً تلك التي كانت تشرف على البحر قائلاً أنه لم يرى لها مثيل في روعتها وأناقتها . كما نوه الكاتب إلى رحابة الدرجات المؤدية للبحر والتي يتواجد على الجهة المقابلة لها إحدى الآلات والتي تقوم بمساعدة اثنتين من العربات التي تشبه عربات الترام برفع وإنزال المتنزهين ، وكذلك الذين لا يمكنهم التحرك بمفردهم .

ذكر «محمد طلعت» أن مدينة أوديسا تضم متحفاً للأثار ومكتبة عامة، بالاضافة إلى عدد من المدارس. وتحدث الكاتب عن المنتجات الصناعية المتطورة في المدينة، والنشاط التجارى الهائل للسكان حيث إن الميناء لايعد حلقة وصل في مجال التجارة مع تركيا فقط ولكن مع الشرق بصفة عامة (صـ٣٨).

وفقاً لشهادة «محمد طلعت» أظهر «منصور أفندى» كرم ضيافة لا مثيل له. كما بذل كل ما في وسعه لإكمال رحلته. ولكن في يوم مغادرته أرسل إليه المؤذن المحلى لمرافقته إلى محطة القطار حيث إنه كان يقوم بالتحضير لسفر مجموعة من الحجاج إلى مكة. داخل محطة القطار تسلم «طلعت» ثلاثة تذاكر الأولى تذكرة القطار موضحاً عليها رقم العربة ومكان الجلوس والثانية: للوجبات الغذائية والثالثة: كانت لأجل القطار السريع (صـ٣٩).

كان يعمل في عربة المطعم بالقطار مجموعة من المسلمين الترك من بلدة «قاسيموف»، (في حقيقة الأمر بدا لرحالتنا محمد طلعت أن جميع العاملين كانوا من قاطني هذه البلدة)، الأمر الذي لم يجعل عند محمد طلعت أي مشاكل بخصوص الطعام، ذلك أن رحلته كانت خلال شهر «رمضان». كانوا يقومون بدعوته للإفطار معهم، ويقدمون له وجبة السحور داخل مقصورته، غير أنه وبناءً على ما كتبه المؤلف كان يتواصل مع العاملين بالعربية بمنتهى الصعوبة؛ وذلك يرجع إلى أنه لم يكن يعرف الكثير عن اللغة التركية، ونفس الحال بالنسبة إليهم« (صـ٣٩). «وهكذا أمضيت الوقت تحت رعايتهم وفي كنفهم كأنني في حلم ساحر، وكان «محمد طلعت» يختلف عن باقى المسافرين من حيث الملبس ولون البشرة. كما أنه لم يكن يفهم لغتهم وكان يلتزم الصمت طوال الوقت أثناء رحلته، وأحيانا كان يتبادل اللفتات والإيماءات مع جيرانه» (صـ٣٩).

فور وصول «طلعت» إلى مدينة سانت بطرسبورج في السادس عشر من نوفمبر، التقى «عبد الرشيد إبراهيم أفندى» أحد طلاب الأزهر السابقين. وقد أذهلت محطة قطار السكك الحديدية الوافد المصري بارتفاعها وعظمتها ورحابتها ومنظرها البديع»(صـ٤٠).

يستمر الكاتب في الوصف قائلاً: «بعد أن انطلقت العربة بضع خطوات لم أسمع صرير العجلات؛ فقد حلت محلها المزالق الحديدية التي تنزلق على الثلج الذي يغطي أرضيات الشوارع وأسطح المدينة والأشجار والطريق الواصل بين أوديسا وسانت بطرسبورج

وفي أوديسا نفسها لم أر مثل ذلك ولكن بعد أن غادرتها إستيقظت في صباح اليوم التالي رأيت الثلوج تغطى المحطة فتبادر إلى ذهنى على الفور أنه ربما تكون بقايا من مادة الجبس أو الجير المستخدمة في بناء أو ترميم المحطة ولكن سرعان ما تبين لى ماهيته استدارت العربة يميناً ويساراً بينما أنا أنظر بإندهاش على الجانبين حتى توقفت أمام أحد المبانى المهيبة. وكان هذا المنزل ذا طابق واحد يملكه السيد «عبد الرشيد». ويضم البيت قاعة كبيرة بها أثاث ثمين وبيانو و بها باب يؤدي إلى غرفة استقبال أخرى ، وإلى اليسار منها يوجد مدخل يؤدي إلى غرفة بها مكتبة ، وبينهما ممر يؤدى إلى غرفة الطعام» (صـ ٤١) .

أما الجزء التالي من الكتاب ، فمُخصص بأكمله لمدينة سانت بطرسبورج . وقد بدأه « محمد طلعت» بوصف الطبيعة الجغرافية للمدينة وتاريخ بنائها . كما أشار المؤلف إلى أنه بعد أن أصبحت عاصمة لروسيا ، تحولت من وجهة النظر المعمارية إلى مركز عالمى ضخم . كما أنه تطرق بالوصف إلى حياة «بطرس الأول» ، وأعماله الحكومية الإبداعية، كما أعطى نبذة تاريخية عن سلالة « ريوريكوفيتش» في روسيا ، وظهور قبائل « روسيتشى» ، وتعميد روسيا ، والحروب الروسية- البولندية ، والتي كان من نتائجها سيطرة بولندا على جزءٍ من الأراضي الروسية حتى القرن الثامن عشر . وتوحيد روسيا في عهد القيصر «إيفان الثالث» ، وظهور سلالة «رومانوف» (صـ ٤٢ – ٤٤) .

ثم عاد رحالتنا مرة أخرى ، إلى تلك الفترة التي تم فيها اختيار مصب نهر النيفا ليكون ضمن الأماكن لتدشين العاصمة الجديدة . كان السبب في هذا الاختيار عدم وجود وسائل مواصلات بين روسيا والدول الغربية . وقد أشار المؤلف إلى أن القيصر قد باشر العمل بنفسه ، حتى أنه قام بخلع أسنان العامل الذي قدم إليه يشكو من آلام الأسنان (صـ ٤٤) . ولكي يجبر « بطرس الأول» الناس على المجيء للعيش في المدينة الجديدة قام بنقل رفات القديسين والتماثيل الدينية التي كانت داخل كنائس موسكو وكييف إلى المدينة الجديدة ، وأشار المؤلف إلى أنه بهذه الطريقة وبفضل رعايته ومثابرته وإبداعه أصبحت سانت بطرسبورج واحدة من أضخم مدن العالم من حيث العظمة و الجمال . ويعيش بها حوالى ٢,٥ مليون نسمة . قسم نهر النيفا المدينة إلى ست جزر ، إلا أن الجسور الحجرية والمعدنية العديدة على نهر النيفا وقنواته ، سهلت الاتصال بين أجزاء المدينة المختلفة . كل هذه القنوات والروافد و الأرصفة العالية المتينة والسياجات الحديدية ذات الأشكال

المبتكرة لا تقدر بثمن وترتسم الدهشة على ملامح من يشاهده خاصة بعد معرفة المبالغ التي أنفقت عليها (صـ٤٤ – ٤٥) .

يستمر المؤلف في الكتابة عما يجب أن يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لهؤلاء الذين يعتزمون الترحال إلى بلاد ، تتميز بطقسها البارد ، كما يورد بعض النصائح القصيرة عما يجب أن يلم به المسافر عن تلك الشعوب (صـ٤٥) . ولا يوجد شيء أهم من التعرف على العقيدة داخل هذه البلدان . يذكر الكاتب أنه يوجد في روسيا اثنان من المذاهب الدينية الأول هو المذهب الأرثوذكسي ، والذي يعتنقه أغلبية السكان . والثانى هو المذهب الكاثوليكي وأتباع هذا المذهب يمثلون الأقلية وفيما بينهما يعيش اليهود والمسلمون. وهم جميعا من أكثر الناس ولاء للدين والبعد عن الخرافات ، ويتميزون بالإخلاص، والتقوى والصدق ، لاسيما هؤلاء الذين يعتنقون الديانة الإسلامية . ومن الملاحظ أنه توجد عدواة خفية بين أصحاب المذهب الأرثوذكسي ، وأصحاب المذهب الكاثوليكي كما بين أصحاب المذهب الأخير ، وأصحاب الديانة اليهودية . أما فيما يتعلق بالمسلمين فكان جميعهم يتعاملون معهم بطريقة متساوية . ويقول الكاتب : إنني عشت مع أسرة يهودية لكنهم لم يتقبلوني معهم إلى أن تيقنوا أننى مسلم (صـ٤٦) . من المرجح أن ملاحظة المؤلف توضح أنهم كانوا ينظرون إليه كمسلم أجنبى على أنه واحد من الأعاجيب . وكتب الرحالة أنه عاش أيضا مع أسرة أرثوذكسية ، ولم يقبلوه عندهم إلى أن تيقنوا من أنه لا يدين باليهودية .

يتعامل أصحاب المذهب الأرثوذكسي تجاه الكنائس والمعابد ، وأيضاً ورجال الدين بكل إجلال. وبحسب تعبير الكاتب ، أنه كثيراً ما شاهد الحوذيّ سرعان ما يخلع قبعته راسماً علامة الصليب في كل مرة يمر فيها ، من أمام إحدى الكنائس أو أي من الأيقونات التي تخص أحد القديسين ، وكانت هي نفس الحال بالنسبة لجميع المارة والركاب . كل هذه التصرفات كان لها طيب الأثر لدى « محمد طلعت» ؛ ذلك أن هذه المشاهد : قد جسدت أمام ناظريّ وحدانية الخالق سبحانه وتعالى واستعداد جميع الخلائق لتمجيده ولعبادته» (صـ٤٦) .

كما أشار الرحالة إلى أن ما يُثار حول إهدار كرامة واضطهاد المسلمين من قبل الروس هو محض إفتراء . وأن بعض الشخصيات المؤثرة الذين يفعلون ذلك ، يصمون الأمة كلها بأفعالهم هذه (صـ٤٦) . وفي رأي «محمد طلعت» فإن الروس يتحلون بالحلم والمودة وأنهم أهل صلاح وتقوى . والحجة التي يسوقها للتدليل على ذلك أنه طوال فترة إقامته في روسيا والتي دامت تسعة أشهر لم يشهد أي عراك في الشوارع أو في الأماكن العامة ، وأضاف أيضاً أن : « عاداتهم الدينية تختلف عن عاداتنا ، فيما عدا وجود بعض الاحتفالات المرتبطة ببعض القديسين ، مثلما يحدث عندنا في مولد النبي» (صـ٤٦ـ٤٧) .

يرجع عدم شيوع الجريمة بين أفراد الشعب الروسي إلى قوة الوازع الديني في قلوبهم ولايناقض هذا القول حسب رأي الكاتب تلك الأعمال الوحشية التي يرتكبها «أعضاء اللجنة الثورية» (على ما يبدو ، الثوار – المؤلف) : فليس لديهم إيمان بأي شيء بسبب ضبابية معتقداتهم التي استمدوها من الكتب الملحدة للفلاسفة الفرنسيين .

كانت أولى المهام التي طلبت من « محمد طلعت « كمحرر ، هي كتابة بعض الكلمات الموجهة إلى المسلمين . هذا النداء تم نشره بين صفحات العدد السابع لجريدة « التلميذ» في الأول من ديسمبر لعام ١٩٠٦ على هيئة قصيدة تحمل عنوان « إلى المسلمين» (صـ٤٧ – ٥٠) . وتتلخص فكرة القصيدة في أن التأخر في بعض المجالات في المجتمع الإسلامى عن المجتمع الروسي ؛ ترجع إلى سيطرة الأجانب عليهم فترة طويلة . ويتوجب على المسلمين أن يتشبثوا بإيمانهم كي يتمكنوا من الخروج من حالة التخلف هذه والمضي قدماً نحو تحقيق التقدم . وهنا تطرق المؤلف لقضية المرأة ، معلناً أن أحد أهم أسباب تخلف العالم الإسلامى يرجع إلى ترك المرأة المسلمة فريسة للجهل ، والتي بدورها تمرره إلى صغيرها أثناء الرضاعة . وقد لجأ « محمد طلعت» إلى الشكل الشعري مرات عديدة لطرح أفكاره (صـ١٢ـ١٣ ، ١٤ – ١٥ ، ٦٦ـ٦٧ ، ٧١ـ٧٩) .

يستطرد المؤلف : « لا يتعرض المسلمون لأي نوع من أنواع الاضطهاد أو الظلم فيما يخص النواحي الإيمانية « (صـ٥٠) ، وذكر أن أعدادهم تقدر بـ٢٥ مليون نسمة (طبقاً لتعداد السكان عام ١٨٩٧ كانت تقدر أعدادهم بـ١٤ مليون نسمة – المؤلف) ويعيش داخل العاصمة الروسية نحو ١٠ ملايين مسلم يشتغلون بالتجارة والأعمال الحرفية بشكل أساسي ، ومن بينهم شخصيات ذات شأن وثراء . لم يكن لدى المسلمين

داخل العاصمة مسجد للصلاة ، فتم استئجار أحد المنازل وتخصيصه لهذا الغرض . وعبر جريدة «التلميذ» ناشدنا الرأي العام للاكتتاب ، كما خاطبنا أيضاً رؤساء الحكومات الإسلامية . كان أمير بخارى «الجليل» هو الوحيد الذي لبى نداءنا ، وقدم المال لأجل شراء قطعة أرض لتشييد مسجد عليها من ماله الخاص ، وهذا ما شجع سكان الإمارة على جمع الأموال . وبالفعل تم جمع رأس مال ضخم ، بالإضافة إلى الأموال التي جمعها رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية بسانت بطرسبورج والمسلم البولندى . وتم شراء منزل كبير في شارع « نيفسكي» ، إلا أنه حتى هذه اللحظة لم يتم عمل أي شيء . لعب الدور الأكبر في الإكتتاب الثريّ الكريم « محمد عليم مقصود أفندى» المعروف عنه التقوى ونكران الذات وأيضاً مشهور بأخلاقه العالية والمثالية» (صـ ٥٠ – ٥١) .

فيما بعد انتقل « محمد طلعت» إلى وصف الحالة الاقتصادية في روسيا ، وكتب : «إن إقتصاد البلاد في حالة تنمية مستدامة ولا يتخلف عن إقتصاديات باقي البلاد الأوروبية الأخرى إن لم يكن يتفوق عليها» . (صـ ٥١) . فهنا العديد من الصناعات متطورة ، وهنا يتم بالفعل إنتاج كل الذي تنتجه أوروبا ، وكثير من المصانع والمعامل ، كما أن صناعة الأخشاب متطورة جدا . وفي منطقة الأورال يتم استخراج الذهب الأبيض ـ البلاتين (صـ ٥٢) .

أما بالنسبة لقطاع الزراعة ، فهو مخصص بشكل أساسي لإنتاج القمح . وهذا يتناسب مع المناخ وخصائص التربة الروسية . و أشار المؤلف إلى أنه يتم زراعة الكرنب أو الملفوف ، والذي يدخل ضمن التكوين الأساسي لتحضير الحساء الروسي الشهير (بورش)، وبالنسبة للأحوال الزراعية فلا تختلف كثيراً عما يوجد عندنا في صعيد مصر ، حيث ينتظر الفلاحون ذوبان الجليد ، وإنحسار المياه ، وبعد ذلك يقومون ببذر البذور في الأرض . وإلى جانب القطاع الزراعي فان الصناعات التحويلية متطورة جداً . يقوم النساء و الأطفال بالمشاركة في جمع محاصيل الفاكهة من التفاح والكمثرى إلخ داخل صناديق، هذه الصناديق تشبه تلك التي تستخدمها الشركات الأجنبية وتجار الفاكهة في مصر (صـ ٥٢) .

ينتقل بنا الكاتب للحديث عن مشكلة التعليم، فيكتب «طلعت» : « لديهم جميع أنواع المدارس الخاصة، ماعدا المؤسسات التعليمية العلمية والدينية، فهى تتبع الحكومة. وفي كل مدرسة سواء كانت حكومية أو خاصة يرتدى التلاميذ زياً خاصا بهم. هذا الزى يشمل : الحرفيين من الترزية والحدادين وسائقي المركبات. ويتميز الزي برموز تميزهم بطراز معين وهو يتميز أيضا بالأناقة. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن يسمح لطلاب المرحلة الإبتدائية والثانوية بارتياد الأماكن العامة- المقاهي إلى آخره، في حين كان لطلاب المرحلة الجامعية الحق في ذلك. وعلى النقيض من ذلك ففي مصر تعج أماكن اللهو والفجور بطلاب المدارس الحكومية و الخاصة على السواء» (صـ٥٣) .

كان لدى مسلمي سانت بطرسبورج « مدارس ابتدائية بسيطة» ، أو كتاتيب لا تخضع لرقابة الحكومة، وعدد قليل من هذه الكتاتيب، كان يديرها أناس معروفين ومتعلمين. وكانت تعتمد في تواجدها على التبرعات الخيرية (صـ٥٤) . وكانت لدى المسلمين إمكانية بناء مدرسة كبيرة في العاصمة، إلا أنه كانت تواجههم بعض الصعوبات . يرى « محمد طلعت» أن الحكومة الروسية تختلف عن الحكومة الفرنسية التي أنشأت المدرسة الصناعية في تونس بأموال أوقاف مدرسة « الصادقية» ، والتي إستحوذ عليها فيما بعد مواطنون فرنسيون. ولم تتعد أعداد الدارسين المسلمين داخل هذه المدرسة ستة أشخاص ، ذلك لأن فرنسا إعتبرت أن التعليم يفسد أخلاق المسلمين (نفس الصفحة السابقة). علاوة على ذلك تساوى السلطات الروسية بين جميع رعاياها في الحقوق. حيث يتم قبول الفتيان والفتيات المسلمين في المدارس الثانوية الحكومية ، و يدرسون كذلك في مؤسسات التعليم العالى مع الشباب والشابات الروس. و يحدث نفس الشيىء في المدارس العسكرية، والتي بعد التخرج فيها يترقى عدد كبير من خريجي هذه المدارس من المسلمين حتى رتبة أدميرال. غير أن الحكومة الروسية أرادت أن تجعل الدراسة داخل المدارس الإسلامية باللغة الروسية، ولكن عند تدريس واستخدام اللغة التتارية كان يتم اللجوء إلى الأبجدية الروسية .

أشار المؤلف إلى أن أوضاع التعليم لدى مسلمي روسيا تتحسن بشكل مطرد يشبه سرعة السيل العارم، وليس فقط بين الطبقات الغنية ، وإنما الفقيرة أيضاً. كان بداخل كل قرية كُتاب لتدريس القرآن الكريم، ولا يتقاضى المعلمون أي رسوم من الطلاب، اللهم سوى بعض الحزم من الحطب، التي كانوا يستخدمونها كوقود للتدفئة، حيث المناخ في روسيا شديد القسوة، لدرجة قد تصل فيها درجة الحرارة إلى ٣٠ درجة تحت الصفر، وفي

أغلب الأحوال تتراوح ما بين ٢٠-٢٥ درجة. ويذكرنا التساقط المستمر للثلوج بندف القطن المتناثر.

وفقاً لما أشار إليه المؤلف، كان الأغنياء يشيدون داخل كل حي من الأحياء السكنية كُتاب أو عدداً من الكتاتيب. وقد أسس أحد أغنياء «باكو» مائة كُتاب على نفقته الخاصة. وكان الأثرياء يقدمون المساعدة للفقراء و يكنون مشاعر الاحترام للعلماء كما كانوا يظهرون تعاطفاً كبيراً نحو العرب أيضاً.

أشار «محمد طلعت» إلى أن أوضاع المسلمين الروس بشكل عام، أفضل بكثير من أوضاع إخوانهم في بقية بلدان العالم، إذ أنهم من وجهة النظر الحضارية في تقدم مستمر. قام أحد المسلمين الذي يمتلك ثروة طائلة بافتتاح أحد الكتاتيب في مدينة «هاربين» بالصين، ومن وجهة نظر المؤلف فإنه نجح بدون شك في نشر الإسلام في الصين في نطاق المسلمين الروس (صـ ٥٦).

أذهلت مدينة سانت بطرسبورج المؤلف بحركة مرورها المنتظمة. ويشير الرحالة إلى أنه مما يثير العجب التام، أن الشارع في العاصمة الروسية ينقسم إلى عدة خطوط، حيث هناك جزء للمشاة وآخر للعربات، والثالث للترام، أما الرابع فمخصص للنزهة. وكقاعدة أساسية يوجد في مفترق الطرق حدائق عامة، يتوسطها تماثيل الأدباء والقادة العسكريين والعلماء والسياسيين والقياصرة. ويعد شارع «نيفسكى» أحد أهم شوارع المدينة والذي يمتد من الشرق إلى الغرب بمساحة ٥ كيلومتر. ويقع على جانبيه الفنادق والمسارح والمتاحف والكنائس، والمحلات التي تمتليء بالبضائع المتنوعة (صـ ٥٧).

يعد الترام الكهربائي، من وجهة نظر «محمد طلعت» أحد الأعاجيب بحيث يسير على الثلوج المتجمدة طوال فصل الشتاء من العاصمة لإحدى القرى التي تسمى «الجانب البطرسبورجى». ويبلغ إرتفاع الثلوج نحو ثلاثة أمتار، ويبدأ الروس في تكسيره بحلول شهر مايو ثم يأخذون كتلاً ضخمة منه، و يدخرونها في أقبية تحت الأرض لاستخدامها أثناء فصل الصيف. ويبدأ فصل الصيف عندهم في شهر مايو، وينتهي في شهر سبتمبر (صـ ٥٧).

كان من المدهش بالنسبة للمؤلف أن الجسور الممتدة على نهر النيفا وقنواته تقدر أعدادها بـ ١٥٠ جسر. وتبلغ مساحة بحيرة «لادوجا» ١٨٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ طولها ٢٠٠ كيلومتر، وعرضها ١٥٨ كيلومتر. ويذهب الناس إلى هناك للاستجمام عبر قوارب

صغيرة للنزهة . فالمسافة إلى هناك تستغرق خمس محطات بالقطار ، و٢١ محطة بالترام (صـ ٥٧) .

أدهشت الرحالة «محمد طلعت» الخدمة التي يحظى بها عِلية القوم ، وخاصة أسرة القيصر : إذ أن سائقي سيارتهم، وسائقي عربات الخيل ، يرتدون ملابس مصنوعة من الديباج ومزركشة بشرائط من القصب . كما يرتدى الضباط ملابس فاخرة و يحملون أسلحة متنوعة (صـ ٥٨) .

كتب طلعت إن كل كنيسة في روسيا ترتبط بحدث تاريخي . فيوجد في روسيا تقاليد خاصة : إذ أنه كان يتم تشييد كنيسة على شرف كل معركة تاريخية هامة ، خاصةً تلك المعارك التي حققوا فيها نصراً مبيناً ، وكان يتم الاحتفاظ داخل هذه الكنيسة بالغنائم التي غنموها أثناء المعركة. وتوجد في سانت بطرسبوج كنيسة نصبت أمامها المدافع العثمانية (نفس الصفحة السابقة) .

كتب « محمد طلعت» معدداً المعالم السياحية للمدينة : «كان الجسر المصري الذي شيده» «بطرس الأول» ويمتد عبر نهر النيفا أحد أعاجيب مدينة سانت بطرسبورج ، ويشير إلى سعيه إلى احتلال مصرنا الحبيبة (صـ ٥٩) .

هذا الإدعاء يعد من السخافة ، ذلك لأن الجسر تم بناؤه بعد مائة عام من وفاة « بطرس الأكبر» في عام ١٨٢٦ ، ولم يتم تشيده على نهر النيفا ، ولكن شيد على نهر فونتانكا . ومن الجائز أن ما سمعه المؤلف في وقت ما حول عملية الإنزال التي قامت بها القوات الروسية في إسطنبول عام ١٨٣٣ ، والتي كانت تهدف إلى منع استيلاء القوات المصرية على عاصمة الإمبراطورية العثمانية قد انعكست في شكل بديع .

من بين العادات الروسية التي ذكرها « محمد طلعت» شغف الشعب الروسي بشرب الشاي فهم يشترونه من المتاجر والمحلات المتعددة ، حيث تعمل السيدات في تلك الأماكن كبائعات ، ولكن من يقوم على خدمة المشترين داخل حانات الخمر هم الرجال والشباب فقط . وتفتح المتاجر أبوابها من الحادية عشر صباحاً ، وتظل تعمل حتى الثانية ليلاً . وتغلق جميع الحوانيت أبوابها في يوم الأحد ، فيما عدا تلك المحال التي تقوم ببيع المواد الغذائية ، فهى تفتح أبوابها بعد الظهيرة .

وطبقاً لما قاله المؤلف فإن مكتبة القيصر ، المخصص لها مبنى رسمي فسيح ودقيق تنتزع الإعجاب (صـ ٥٩) . حيث تضم المكتبة ما يقرب من ١٧٠٠ ألف مجلد ، و٤٠ ألف مخطوطة، و٨٠ ألف رسمة . وكتب المؤلف : « لقد حظيت بزيارة المكتبة بصحبة « عبد الرشيد أفندي إبراهيم» ، وعثرت بها على نسخة من القرآن الكريم ، والتي يقال عنها إنها نسخة من مصحف عثمان» (صـ ٦٠) .

يكتب المؤلف لاحقاً أن المتحف الشهير ، الذي يضم معروضات من مختلف العصور، يعد أيضا من معالم العاصمة . ويوجد داخل أروقة هذا المتحف ، وتحديداً في الطابق الثانى معرض لوحات رسمها أشهر الفنانين تصور المعارك الحربية ، ومشاهير الناس من القادة والشعراء والكتاب والقياصرة والملوك من مختلف الأحقاب . وهناك بعض اللوحات تمثل « نابليون بونابرت»، وحريق موسكو ، كما أن هناك أيضا لوحات تصور موضوعات دينية (صـ ٦٠) . وفي قاعات المتحف ، يمكن أن تشاهد الرسامين المبتدئين من الشباب والفتيات ، الذين يقومون بمحاكاة اللوحات الأصلية (صـ ٦١) .

من الأمور اللافتة للنظر بالنسبة للمؤلف ، نشاط الجمعية الخيرية ، التي افتتحت مطاعم مجانية للفقراء ، أي لأولئك الذين يحملون شهادة تفيد بأنهم فقراء ، وكان سعر طبق الحساء لا يتجاوز ثلاثة كوبيكات .

كانت انطباعات «محمد طلعت» كثيرة ومتعددة الواحدة تلو الأخرى. وكثيراً ما أوردها المؤلف داخل الكتاب بدون ترتيب . ذكر المؤلف أن بيوت الدعارة لا يتواجد بها أي سيدة مسلمة غير أنه ذات مرة أشيع عن أن هناك مجموعة من الفتيات المسلمات تتزعمهن سيدة أجنبية ، يسعين إلى العمل داخل أحد بيوت الدعارة ، فقام رئيس الطائفة التتارية فور علمه بذلك بمخاطبة السلطات مطالباً بترحيلهم خارج العاصمة ، وقد استجابت السلطات لطلبه (صـ ٦١) . طبقاً لملاحظات المؤلف ، كان يتعين على كل من كان ينوي بناء منزل ، تخصيص جزء منه للمرافق العامة ، وفقاً للقوانين المحلية (صـ ٦١) . لذلك لاتوجد مراحيض عامة تابعة للسلطات المحلية في سانت بطرسبورج (صـ ٦٢) .

لفت انتباه « محمد طلعت» حقيقة ، أن السلطات كانت تصدر نشرة عن سكان المدينة ، بغض النظر عن العمر والنوع كل ستة أشهر . ولأجل هذا الغرض ، تم تعيين محاسبين متخصصين يقومون برصد المتغيرات في هذا الشأن . وأشار المؤلف أنه : « إذا كنت أحد القادمين إلى مدينة سانت بطرسبورج ، وتريد الاستفسار عن شخص ما فكل ما عليك فعله ، هو أن تتوجه بطلب إلى هيئة البريد بقيمة ثلاثة كوبيك ، وهى بدورها سوف ترسل إليك العنوان المطلوب . وكان كل بواب في كل منزل يتسلم كتيب من المحافظة لتسجيل بيانات المستأجرين الجدد . وكانت المنازل تُشيد على هيئة مربع ، يتوسطه فناء واسع ، وكل منزل له مداخل ومخارج على كلا الجانبين . وعند سقيفة الباب في الخارج كان يجلس حارس يرتدى زى خاص ومعه خادم نطلق عليه نحن اسم « بواب» . وكان من مهام الحارس إخبار البواب بما يحدث داخل المنزل ، وتسلم المراسلات من ساعى البريد وتسليمها لأهل المنزل (صـ٦٢) . وبهذا استغنت السلطات عن الحراسة الليلية واقتصرت بالطواف حول المدينة بالخيالة في أوقات الليل» (صـ٦٣) .

ومن الطريف من وجهة نظر المؤلف ، أنه كان يتم بناءً على أوامر من الحكومة طباعة خريطة بألوان متعددة وزاهية وموضح عليها جميع المتاجر الحكومية والقنصليات الأجنبية أيضاً والمدارس والجمعيات الخيرية والعيادات والمستشفيات ومراكز الإطفاء ، ومرفق بالخريطة دفتر صغير ، يحتوى على دليل لأماكن أقسام الشرطة والسكان ، وتباع الخريطة والكتيب بعشرة كوبيك (صـ٦٣) .

يشير « محمد طلعت» إلى أن مدينة سانت بطرسبورج تخلو من العرب ، فيما عدا « أنطون خشاب» الذي يتحدث اللغات : العربية والفرنسية والفارسية والتركية، أشتهر بالتواضع والتقوى . تلقى تعليمه في مرحلة الطفولة بالمدارس الروسية (صـ٦٤)، وأصبح فيما بعد موظفاً داخل أحد البنوك الروسية ، ثم سافر للعمل في إيران حيث درس هناك اللغة الفارسية ثم عاد إلى روسيا بعد عدة سنوات . و يحكى الكاتب أنه : « ترك روسيا في مايو ١٩٠٧ ، عشية تعيينه بمنصب مرموق داخل وزارة الخارجية الروسية ويقول المؤلف إن : « أنطون أفندي» متزوج من سيدة روسية فاضلة في جميع النواحى ، والتي تعد معجزة حقيقية . وقد بذلا ما في وسعهما لأجلي ، وحتى الآن ، أكن لهما كل الامتنان والتقدير « (صـ٦٥) .

كما اعتبر « محمد طلعت» أن ظهور أية شائعات سيئة تحاول النيل من سمعة روسيا وهيبتها ، لا أساس لها من الصحة . لكن من الجائز أن سبب ظهور هذه الأقاويل من وقت لآخر يمكن أن يعود إلى ما كانت تقوم بها المنظمة الثورية من أنشطة ، والتي تذكرنا بشباب الأتراك حيث تقوم هذه المنظمة باغتيال ممثلى السلطة وتُفجير المبانى الحكومية بهدف إسقاط النظام القائم في البلاد . ومن وجهة نظر المؤلف أنه لم تكن هناك أية مشاكل معلقة بين الحكومة وباقى الأمة ، سوى تقسيم الأراضي التي كانت جميعها ملك للأسرة الحاكمة ، وكبار ملاك الأراضي والذي يطلق عليهم باللغة الروسية «ملاك». كل شيء في روسيا فيما عدا الشأن الزراعي ، في مستوى البلدان المتحضرة (صـ ٦٥) . كما يضيف المؤلف إحدى ملاحظاته حول وحدة قياس الأراضي الزراعية ويذكر أن الأراضي في وطنه تقاس بـ « الفدان» ولكن في روسيا تقاس بوحدة قياس تسمى « ديسياتينا» ، والتي تعادل نصف فدان (صـ ٦٦) .

يتذكر « محمد طلعت» أنه في الثاني من مارس ١٩٠٧ كان حاضراً عند افتتاح الدوما الثانى ، وكانت تتعالى صيحات الفلاحين وهم ينادون « الأرض ، الأرض ! » . ويشير المؤلف أن أعداد تمثيل المسلمين داخل الدوما كانت قليلة ، بالمقارنة بتمثيل باقى الديانات، كما يضيف أن المسلمين كانوا يميلون إلى العزلة ولايميلون إلى الانضمام إلى أي حزب سياسي (صـ ٦٦) .

ثم يختتم « محمد طلعت» حديثه عن المسلمين والأحزاب داخل روسيا بالشكل الآتي : «أنه بلا أدنى شك وعلى الرغم من اختلاف المسلمين في الرأي مما يضعف صوتهم داخل الدوما فإنهم أحسن حالاً من المسلمين داخل مصر حيث ظهرت الحكومة في حالة عجز كامل . وصارت الأمور على نحو مزر مما أدى إلى شعورنا بفقدان الأمل في مستقبل أفضل» (صـ ٦٩) و تقف البلدان الأوروبية جميعها والاحتلال البريطانى على وجه الخصوص بشدة ضد عدم حصولنا على كامل سلطاتنا الدستورية كسائر البلدان المستقلة المتحضرة . ولو أن السلطة الدستورية كانت بأيدينا ـ حسب قول المؤلف لتمكنا من السيطرة على الأمور المالية والمؤسسات التعليمية والجيش . أما ما يخص الشئون المالية فإن الذين أغرقوا البلاد في الديون لايسمحون لنا بالسيطرة عليها وكذلك مساعدة الدول الأوروبية لهؤلاء الدائنين . وفيما يخص أمور الجيش والتعليم فإن الحديث لا يدور عن الدول الأوروبية، ولكن عن إنجلترا فقط بسبب طموحات بعض السياسيين (صـ ٦٩ – ٧٠) .

غادر المؤلف سانت بطرسبورج في مايو ١٩٠٧ ، فور علمه من أهل الثقة وأخوة الإيمان عن اعتزام الحكومة إغلاق الصحيفة العربية «التلميذ» ، والتركية «الفتح» وكان السبب الثانى لمغادرته هو تأخر صرف راتبه والذي حصل على جزء منه بصعوبة بالغة بمساعدة « عطا الله أفندى» مالك صحيفة « النور» ، ومعلم المدرسة الإمبراطورية للغات الشرقية « محمد صفا أفندى» (صـ ٧٩ – ٨٠) .

على الرغم من صغر حجم كتاب « محمد طلعت» ، إلا أنه يضم معلومات متنوعة ومختلفة عن روسيا . ما رأي محمد طلعت في روسيا سيمثل للإنسان المصري شيئا عجيبا وغريباً مثلما هى مصر ، موطنه أعجوبة بالنسبة للإنسان الروسي . ومن الجدير بالذكر، أن روسيا تركت إنطباعاً جيداً لدى « طلعت» ، وكتب عن الشعب الروسي بمنتهى التعاطف هذا ويعد كتاب « السير والنظر» ، قد ساهم بقدر كبير في ترك بصمة إيجابية حول روسيا والشعب الروسي لدى المصريين .